Page 21

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

محنة الطَبريّ و اختلاف الفقهاء

الدكتور عمر موسى باشا
جامعة دمشق

يعرّف الكاتب في هذه المقالة الطبري ويتحدث عن نشأته ثم يتطرق إلى علمه وما ذكره العلماء في هذا الشأن وإلى محنته ويقول ليس غدير الفقهاء اسم كتاب معين من كتبه الكثيرة، وإنما هو في الحقيقة إشارة إلى كتابين كانا مصدر محنته. هما (أحاديث غدير خم). و(اختلاف الفقهاء)؛ وقد خصصتهما بالبحث لأنهما يمثلان شجاعة الطبري، ودفاعه عن الحق، وإيمانه بحرية الفكر في العقيدة والمذهب.

ثم يضيف الكاتب قائلاً: لقد كان الطبري يدحض آراء المتعصبين والمتزمتين من العلماء الذين يحاولون طمس الحقائق الدينية بسبب النزاعات المذهبية والنزعات الذاتية التي لا تمت إلى الحقيقة بصلة. فلا غرابة بعد هذا كله إن رأينا أن هذين المؤلفين كانا مصدر محنتين، محنة في الحياة ومحنة في المماة، لأنه كان يؤمن بالتسامح، ويقدّس حرية الفكر المذهبي.

ثم يتطرق الكاتب إلى ما أورده الطبري عن حديث غدير خم ورأي الطبري في المقام المحمود وأخيراً عن مؤلفات الطبري.

التعريف

أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطَبَريّ[1]، «واحد الدهر، وفريد كل عصر»[2]، العالم المشهور، والعلّامة المجتهد، والامام الفقيه، والمفسّر المحقق، والمؤرخ الثبت، و «كان أحد أئمة العلم يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله»[3].

ولد في مدينة آمل، وهي حاضرة طبرستان الكبرى، في آخر سنة أربع وعشرين، أو أول سنة خمس وعشرين ومائتين هجرية (٨٣٩م)، وقد علل هذا الخلاف في تحديد المولد بأن العادة جرت عند القدماء بذكر حدث معين يوافق ذلك.

ارتحل الطبري إلى حواضر العلم في العالم الإسلامي طلباً للعلم ونيل الإجازات، وهو ابن اثنتي عشرة سنة في سنة ست وثلاثين ومائتين، فقصد الريّ، وأزمع أمره على زيارة أحمد بن حنبل ليأخذ عنه، ولكن وفاته حجبت عنه لقاءه.

كما قصد الكوفة والشام ومصر وغيرها، وآثر العودة إلى وطنه بعد مطافه الطويل رغبة في الاستقرار وإفادة الناس بعلمه، بَيْدَ أنه رغب في الإقامة ببغداد حاضرة الخلافة، وقد عرض عليه استسلام القضاء فأباه، وأوكل اليه استسلام المظالم فامتنع عنها أيضاً، تنسكاً وتعففاً، وخشية من الوقوع في الظلم، كما كان يرفض أن يأخذ من أحد أجراً أو مكافاة، لأنه

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

كان ذا مورد ورثه عن أبيه في طبرستان يكفيه رزقه وما هو بحاجة إليه.

هكذا عكف على التصنيف والتأليف، لأنه له في ذلك ثواباً في علم ينفع الناس، بعد أن اكتملت لديه الأصول الجوهرية في ثقافته الدينية والموسوعية، بالإضافة إلى ثقافته التاريخية.

محنة الطبريّ

انتابت الطبري محنتان، محنة مجلس الجمعة يوم تألّب عليه أعداؤه من بعض المحدّثين الذين أثاروا عليه العامة وجماعة الحنابلة الحاقدين عليه، لأنه لم يكن ليعتمد صاحبهم أحمد بن حنبل فيمن يورده في رواياته، لأنه في نظره محدّث وليس بصاحب مذهب متميز بين المذاهب الاسلامية.

ذكر أبو بكر الخطيب أنه مات «يوم السبت لأربع بقين من شوال سنة عشر وثلاثمائة، ودفن يوم الأحد بالغداة في داره برحبة يعقوب، ولم يغيّر شيبه»[٤].

والغريب كما أورد ياقوت خبره في معجمه نقلاً عن غير الخطيب أنه «قد دفن ليلاً خوفاً من العامة لأنه كان يتهم بالتشيع»، واستطرد ياقوت قائلاً نقلاً عن الخطيب: «ولم يُؤذن به أحد، فاجتمع على جنازته من لا يحصي عددهم الا الله، وصُلّي على قبره عدة شهور، ليلاً ونهاراً، ورثاه خلق عظيم من أهل الدين والأدب»[٥]، من هؤلاء أبو سعيد بن الأعرابي، فقد جاء في رثائه[٦] قوله:

حَدَثٌ مُفْـظِعٌ وخَـطْبٌ جليلُ ... دَقَّ عن مثلِه اصطبارُ الصَبور

قام ناعـي الـعلوم أجمَعَ لمّا ... قام ناعـي محمـدِ بن جرير

ومن الذين رثوه أيضاً صديقه ابن دريد[٧]:

إن المـنـيـةَ لم تُتْـلِفْ به رَجُـلاً ... بل أتلفت عَلَمًا للدين منصـوبـا

كان الـزمـانُ به تصفـو مشـاربُه ... والآن أصبـحَ بالتـكدير مقـطوبا

كلّا وأيامُـه الـغُـرُّ التي جُعِلَتْ ... للعـلم نوراً وللتقـوى محاريـبا

ويبدو أن الحاقدين عليه كانوا من جماعة المحدثين الذين لم يستطيعوا مناظرته، وإنما كان يكشف أخطاءهم، بالإضافة إلى الحنابلة الذين لم يكونوا يستطيعون الوقوف أمامه في محجّة المناظرة والمناقشة العلنية، وقد أفلح هؤلاء جميعاً في الإساءة إليه يوم وفاته، فمنعوا أفواج الناس من تشييعه، ودفنه في وضح النهار، وهكذا آثر جماعته ومريدوه دفنه في منزله خوفاً عليه من أعدائه، فينبشون قبره ميْتاً بعد محنته حياً.

يقول ابن كثير: «ودفن في داره لأن بعض عوامّ الحنابلة ورعاعهم منعوا من دفنه نهاراً، ونسبوه الى الرفض، ومن الجهلة من رماه بالإلحاد... بل كان أحد أئمة الإسلام علماً وعملاً بكتاب الله وسنة رسوله»[٨].

وكان على رأس هؤلاء الحاقدين أبو بكر محمد بن داود الفقيه الظاهري فقد «كان يتكلم فيه ويرميه بالعظائم والرفض»[٩].

كانت محنة الطبري يوم وفاته عرساً لسلطان العلم والمجد، وانتصاراً لحرية الفكر والعقيدة، وتنديداً بالتعصب المذهبي، ولا سيّما على آل البيت، حين انتصر لهم، فلقي محنته الأولى التي سوف نعرضها في القسم الثاني من هذا البحث.

لقد قهر أعداءه حياً وميتاً، ولا أعرف فيما اطّلعت عليه عالماً استمرت الصلاة على قبره بعد موته هذا المدى الزمني الطويل خلال شهور أو عام تقريباً[١٠]، وهذا ـ بالطبع ـ يدل على كمال فضله، ومحبةالناس إياه، ولسان الخلق أقوال الحق.

رفض الطبري في محنته الأولى أن يسامح قبيل موته كل إنسان رماه بضلالة وبدعة. قال أبو بكر بن كامل: «حضرت أبا جعفر حين حضرته الوفاة، فسألته أن يجعل كل من عاداه في حِلّ»، فقال «كل من عاداني وتكلم في حلّ، إلّا رجلاً رماني ببدعة».

والمعروف عنه أنه «كان إذا عرف من إنسان بدعة أبعده واطّرحه».

والغريب حقاً أن يمنع الحنابلة مريدي الطبريّ من العلماء والفقهاء والشداة من الأخذ عنه. يقول أبو بكر الخطيب: «ولقد ظلمته الحنابلة، قال: الحنابلة تمنع ولا تترك أحداً يسمع عليه»[١١].

آمُل و طَبَرستان

حرصت كل الحرص على وقْفةٍ معرفته عند آمُل الحاضرة الكبرى لطَبَرستان، أصل بين الماضي والحاضر لما في ذلك من توخي الفائدة لمعرفة البيئة العلمية التي ساعدت على تكوين الطبريّ العظيم.

كان من المفروض أن يكون النَسب المكاني، ابن جرير

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

لي ثم الطبريّ، كما جرت العادة في كتب التراجم، ومن المؤكد ظرنا أن تجريده من مولده أمل كان جَرْياً على عادة ـويين للتفريق بين آمل طبرستان و آمل الشطّ، الواقعة ب جيحون، فاقتصرت النسبة إلى آمل الثانية على الآمليّ. آمل الأولى فاقتصرت على الطبريّ، للتفريق بينهما.

عرّف ياقوت آمل فضبطها بضم الميم، وذكر أنها «اسم ينة بطبرستان في السهل، لأنها سهل وجبل،... وبآمل تعمل سجّادات الطبرية، والبسط الحسان، وكان بها ـ أولَ اسلام لها ـ مسلحةٌ في ألفي رجل، وقد خرج منها كثير من العلماء، لنهم قلّما ينسبون إلى غير طبرستان، فيُقال لهم: الطبري، منهم ر جعفر بن جرير، صاحب التفسير والتاريخ المشهور، أصله ولده من آمل...»[١٢].

تعجب ياقوت من عدم نسبة الطبري إلى مكان مولده في ل، وذكر أنهم قلّما ينسبون إلى غير طبرستان، على الرغم من ه أشار إلى آمل الشط الثانية، وهي مدينة معروفة، نُسب إليها دد من العلماء، وهي واقعة في «غربي جيحون، على طريق قاصد إلى بخارى من مَرْو، ويقال لهذه: آمُل زم و آمُل جيحون آمُل الشطّ و آمُل المفازة، لأن بينها وبين مرو رمالاً صعبة لمسالك، ومفازة أشبه بالمهالك، وتسمّى أيضاً آمو و آمويه...».

واستطرد ياقوت فعدّ أسماء عشرة من العلماء والمحدثين لذين نسبوا إلى آمل الشطّ، وهذا يوضّح أهمية هذه البيئة في مليها من الوجهة الفكرية والحضارية.

علّق ياقوت على ذلك بقوله: «وقد أخرجت آمُل هذه جماعة ن أهل العلم وافرة، وفرّق المحدثون بينهم وبين آمل طبرستان، ولا نفرق عندنا بين الآملين، وإنما تهمنا الإشارة إلى هذا التطور الفكري الفعّال في القرن الثالث الهجري في طبرستان، سواء كان ذلك في آمل الأولى أم آمل الثانية.

ومن حق البحث علينا، بعد هذا الحديث عن المدينتين المعروفتين باسم آمل، أن نخص طبرستان نفسها، فقد زارها ياقوت وأُعجب بها أيّما إعجاب، وأطال الوقوف عندها، والتحدث عنها، واعتذر لنا لإطالته في ذكرها، فحديثها لديه كان شيقاً، يشعر المرء من خلاله بصدق ولائه لها، ومحبته للعلم والعلماء في كل زمان ومكان.

ضبط ياقوت لفظ طبرستان بفتح طائه وبائه وكسر راء ثالثة، وهي مؤلفة من لفظين طبر و استان. أما معنى طبر فهو الذي يشقق الأحطاب وما شاكلها، وهو من أصل فارسي، وربما كانت من أصل عربي[١٣]. فالأصل الثلاثي طبر معروف، و طبر الرجل إذا قفز أو اختبأ، ويطلق لفظ استان على الناحية أو الموضع أي ناحية الطبر، والنسبة إليها الطبريّ.

مازندران أو طبرستان

وصف ياقوت طبرستان وصفاً دقيقاً، وأشار إلى أنها «بلدان واسعة كثيرة، يشملها هذا الاسم، خرج من نواحيها من لا يُحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه. والغالب على هذه النواحي الجبال، فمن أعيان بلدانها: دهستان و جرجان و أستراباد و آمل، وهي قصبتها، و سارية، وهي مثلها، و شالوس، وهي مقاربة لها. وربما عُدّت جرجان من خراسان. إلى غير ذلك من البلدان.

و طبرستان في البلاد المعروفة بمازندران. ولا أدري متى سمّيت بمازندران، فإنه اسم لم نجده في الكتب القديمة، وإنما يسمع من أفواه تلك البلاد، ولا شك أنهما واحد، وهذه البلاد مجاورة لجيلان و ديلمان... رأيت أطرافها، وعاينت جبالها، وهي كثيرة المياه، متهدّلة الأشجار، كثيرة الفواكه... وأنا أذكر ما قال العلماء في هذا القطر، وأذكر فتوحه واشتقاقه. ولابد من احتمالك لفصل فيه تطويل بالفائدة الباردة، فهذا من عندنا مما استفدناه بالمشاهدة والمشافهة، وخذ الآن ما قالوه في كتبهم...»[١٤].

هذا النص على غاية من الأهمية الاجتماعية والفكرية، ذلك لأن ياقوتاً يؤكد ما يرويه من فوائد اعتماداً على المنهج العلمي لدي المحدثين وذلك اعتماداً على المشاهدة والمشافهة، وقد حرصت على إيراد ما استرعى انتباهي إكمالاً للفائدة المرجوة من هذا البحث عن الطبري.

نقل ياقوت عن علماء الفرس القدماء أسطورة طبرستان وذلك حين اجتمع في جيوش بعض الأكاسرة خلق كثير من الجناة، فنُفوا إلى هذا المكان، وخلص إلى القول بعد استفاضته في الحديث إلى القول: إن لفظ طبرستان هو معرب طَبَرْزنان، ومعناه الفؤوس أوالنساء، كما جاء في هذه الأسطورة الطريفة، وخلص من ذلك كله إلى القول: «والذي يظهر لي، وهو الحق،

Page 21

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

ويعضده، ما شاهدناه منهم أن أهل تلك الجبال كثيروا الحروب، وأكثر أسلحتهم، بل كلها، الأطبار، حتى إنك قل أن ترى صعلوكاً أو غنياً إلّا وبيده الطبر، صغيرهم أو كبيرهم؛ فكأنها لكثرتها فيهم سميت بذلك، ومعنى طبرستان من غير تعريب موضع الأطبار، والله أعلم...».

ثم استطرد فتحدث عن فتوح طبرستان مطوّلاً وختم ذلك كله بقصته طائر غريب، يعرف باسم «كمكم» ويظهر في فصل الربيع.

وجدير بالذكر هنا أن الطبري خص موطنه طبرستان بكتاب اسمه «البصير في معالم الدين»، وقد كتب به إلى أهل طبرستان «فيما وقع بينهم فيه من الخلاف في الاسم والمسمّى... وهو نحو ثلاثين ورقة»[١٥].

وكانت صلته ببلده وثيقة، إذ كانت ترده من آله وأصدقائه هدايا كثيرة، منها الهدية التي بعث بها إلى الوزير مصحوبة برقعة مكتوبة لقبول هدية طريفة في حزمة مغلّفة[١٦].

بحر العلوم

لا شكّ أن الطبريّ كان بإجماع العلماء القدماء معروفاً بالعلم والذكاء والاجتهاد، وقد نعت بـ (البحر الإمام)![١٧].

يقول أبو بكر الخطيب: «وما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير»[١٨].

واستطرد يقول: «وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عزّ وجلّ، بصيراً بالمعاني، فقيهاً بأحكام القرآن، عالماً بالسنن وطُرُقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم. له الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك، وكتاب في تفسير القرآن لم يصنّف أحد مثله، وكتاب سمّاه تهذيب الآثار لم أر سواه في معناه، لم يتممه. وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، واختيار من اقاويل الفقهاء، وتفرّد بمسائل حفظت عنه»[١٨].

أورد ياقوت آثار الطبريّ معلقاً على بعضها، وصنّفها تصنيفاً هجائياً[١٩] صديقي المرحوم أبو الفضل إبراهيم تحقيقاً وتوثيقاً، وذلك في تقديمه كتابه المعروف «تاريخ الرسل والملوك» أو «تاريخ الأمم والملوك» وهي التالية:

«آداب المناسك» و «آداب النفوس» و «اختلاف علماء الأمصار» و «أحاديث غدير خمّ» و «بسيط القول في أحكام شرائع الإسلام»، وقد قدم له بكتاب سماه «مراتب العلماء» و «البصير في معالم الدين» و «تاريخ الرسل والملوك» و «تهذيب الآثار» و «جامع البيان في تفسير القرآن» وقد نقله بعض المتأخرين إلى الفارسية لمنصور بن نوح الساماني، و «الجامع في القراءات» و «حديث الطير» و «الخفيف في الفقه» و «ذيل المذيّل» و «الرد على الحرقوصية»[٢٠] و «الرد على ذي الأسفار»[٢١] و «الرد على ابن عبدالحكم على مالك» و «صريح السنة»[٢٢] و «طرق الحديث» و «عبارة الرؤيا» و قد مات ولم يتمه، و «العدد والتنزيل» و «الفضائل»[٢٣]، وهي ثلاثة كتب، و «لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام» وهو من أهم كتبه، وفيه آراؤه في مذهبه، و «مختصر الفرائض» و «المسترشد» و «المسند المجرّد» و «الوقف» و «دلائل النبوة»، و «أمثلة العدول»، وهو من جيد كتبه التي يعوّل عليها أهل مدينة السلام.

ثمة كتب أخرى للطبري، وقد لاحظنا أن بعض ما ذكرناه من آثاره لم يتمه، ويبدو أن المحنة التي أصابته أوقفته عن متابعة نشاطه التأليفي، والغريب أن الحنابلة كانت تضايقه وتمنع الطلبة والعلماء من حضور مجالسه العلمية، ولا تترك أحداً يسمع عليه.

غدير الفقهاء

ليس غدير الفقهاء اسم كتاب معين من كتبه الكثيرة، وإنما هو في حقيقته إشارة إلى كتابين كانا مصدر محنتين له، لا محنة واحدة، هما: أحاديث غدير خم، و أختلاف الفقهاء؛ وقد اخترت تخصيصهما بالبحث لأنهما يمثلان شجاعة الطبري، ودفاعه عن الحق، وإيمانه بحرية الفكر في العقيدة والمذهب.

لقد كان يدحض آراء المتعصبين والمتزمتين من العلماء الذين يحاولون طمس الحقائق الدينية بسبب النزاعات المذهبية والنزعات الذاتية التي لا تمت إلى الحقيقة بصلة، فلا غرابة بعد هذا كله إن رأينا أن هذين المؤلفين كانا مصدر محنتين،

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

محنة في الحياة، ومحنة في المات، لأنه كان يؤمن بالتسامح، ويقدس حرية الفكر المذهبي.

أحاديث غدير خُمّ.

دافع الطبري عن علي بن أبي طالب في بعض المواقف التي جرى فيها ذكر علي(ع)، ودافع عن حقوق آل البيت بكل صراحة وجرأة، ومما لا شك فيه أن ذوي السلطان كانوا يتعصبون عليهم، ويحرّضون بعض العلماء للتنقص منهم، لكن العلماء المنصفين ردّوا عليهم مطاعنهم، وكان الطبري القدوة في الدفاع عن حقهم، وتثبيت أركانه، ودحض مفتريات الذين نصبوا أنفسهم لشتم آل البيت زلفى للذين بيدهم زمام الأمور.

كان الطبري يعتمد على روايات الصحابة وآل البيت، فابتدأ تصنيف كتاب (تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن الرسول، صلّى اللّه عليه وسلم، من الأخبار)[٢٤] ابتدأه بما رواه أبو بكر الصديق (ر) مما صحَّ عنده بسنده، وتكلّم على كل حديث منه بعلله وطرقه... فتمّم منه مسند العشرة، وأهل البيت، والموالي...»[٢٥].

مات الطبري قبل إتمامه، وقد عُدَّ «من عجائب كتبه» كما ذكر ياقوت أنه «كتاب يتعذر على العلماء عمل مثله، ويصعب عليهم تتمته»[٢٦].

إن ما يهمنا من الإشارة إلى هذا الكتاب، أنه اعتمد ووثّق روايات آل البيت، لأنه كان يحبُّهم ويحترمهم، ويدافع عن حقوقهم، وما تَنَقَّصَ أحد علياً(ع) أو بعض آله، إلا وقد تصدّى للدفاع عنهم.

قال ابن عساكر: «ولما بلغه أن ابا بكر بن أبي داود السجستاني تكلّم في حديث غدير خمّ، عمل كتاب الفضائل، فبدأ بفضل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وتكلّم على تصحيح حديث غدير خمّ، وأتى من فضائل أمير المؤمنين عليّ بما انتهى إليه، ولم يتم الكتاب»[٢٧].

وقال ياقوت: «وكان إذا عرف من إنسان بدعة أبعده واطّرحه، وكان قد قال بعض الشيوخ ببغداد بتكذيب غدير خمّ، وقال: إن علي بن أبي طالب كان باليمن في الوقت الذي كان رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلم، بغدير خمّ، فقال

ثم مررنا بغدير خمّ كم قائل فيه بزُورٍ جمّ

على عليّ والنبيّ الامّي

وبلغ أبا جعفر ذلك، فابتدأ بالكلام على فضائل علي بن أبي طالب، وذكر طرق حديث خمّ، فكثر الناس لاستماع ذلك»[٢٨].

كما روى الذهبي المحدث نفسه: «قيل لأبن جرير إن أبا بكر بن أبي داود يملي في مناقب علي، فقال: تكبيرة من حارس، وقد وقع بين ابن جرير وبين ابن أبي داود، وكان كل منهما لا ينصف الآخر، وكانت الحنابلة حزب أبي بكر بن ابي داود، فكثروا، وشغبوا على ابن جرير، وناله أذىً، ولزم بيته نعوذ باللّه من الهوى...»[٢٩].

ونعود إلى ياقوت لمتابعة الخبر المذكور، في قوله: «واجتمع قوم من الروافض ممن بسط لسانه بما لا يصلح في الصحابة، رضي اللّه عنهم، فابتدأ بفضائل أبي بكر وعمر، رضي اللّه عنهما، ثم سأله العباسيون في فضائل، فابتدأ بخطبة حسنة، وأملى بعضه، وقطع جميع الإملاء قبل موته»[٣٠].

كان تصحيح حديث خمّ ودفاعه عن رواياته المسندة، وهو الحافظ الثقة العلاّمة، مصدر قلق لدى هؤلاء المتعصبين الذين بهرتهم شهرته، فطبّقت الآفاق فاجتمع الناس عليه من كل حدب وصوب يستميحونه علمه سماعاً وإملاء وإجازة.

لم تظهر كتب الفضائل للوجود، ما عدا كتاب فضائل علي(ع)، إذ ابتدأها به، ذلك لأن الطبري لم يتم كتب الفضائل اللاحقة عن أبي بكر وعمر والعباس، كما يقول ياقوت، وإنما بقي من الكتاب الأول في فضائل علي(ع) أحاديث غدير خمّ، وقد رآه الناس مستقلاً عن كتب الفضائل، وجدير بالذكر أن الطبري أملى فضائل أبي بكر وعمر في طبرستان، لكنه «خاف أن يجري عليه ما يكرهه، فخرج منها من أجل ذلك»[٣١].

في منتخب تاريخ البرزالي: «قلت: وقد رأيت له كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خمّ في مجلدين ضخمين»[٣٢].

ولم يصلنا هذا الكتاب، على الرغم من شهرته، وتكرر ذكره في كتب التراجم المعتمدة، كما رأينا. ويتضح من تواتر رواياته في كتب الأصول وغيرها أن الطبري كان على حق حين خصّ أحاديث الغدير بكتاب مستقل، وضبطها صحةً وتواتراً وتوثيقاً وتحقيقاً.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

وجدير بالذكر أن نشير إلى العمل الجبار الذي قام به العلامة الأميني النجفيّ بوضع موسوعته الكبرى المعروفة بـ(الغدير في الكتاب والسنة والأدب)، وذلك تعويضاً عن الكتاب المفقود، وحقق بذلك منه المقصود.

اختلاف الفقهاء

كان الطبريُّ عالماً متفرداً مجتهداً «له مذهب في الفقه اختاره لنفسه، وله في ذلك عدة كتب»[٣٣]، ولا يعتمد على النقل فحسب، وإنما كان يعمد إلى العقل والإجتهاد، لأنه كان يتمتع بشخصية فريدة اتسمت بالعلمية والموضوعية والبعد عن التعصب الذي كان معروفاً لدى بعض العلماء في القرن الثالث الهجري في العصر العباسي. وسوف يتضح لنا موقفه الموضوعي في قضية هامة جداً، أوردها في كتابيه الكبيرين المشهورين، هما: لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام، و اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام. وكان هذان الكتابان الفقهيان عامة، والثاني منهما خاصة مصدر محنة الطبري.

كما أُطلق على الكتاب الثاني اسم «اختلاف الفقهاء»[٣٤] وبذلك اشتُهر. ولابد لنا من الإشارة بادئ الأمر إلى البواعث الجوهرية التي حثت المؤلف على تصنيفه. فقد ذُكر أن الطبري كتبه جواباً لأحمد بن عيسى الذي سأله ذلك وطلب منه معرفة سبب تأليفه.

أورد ياقوت خبر هذا الكتاب في قوله: «وكان أوّل ما عمل هذا الكتاب ـ على ما سمعته يقول وقد سأله عن ذلك أبو عبدالله أحمد بن عيسى الرازي ـ إنما يحمله ليتذكر به أقوال من يناظره، ثم انتشر، وطُلِبَ منه فقرأه على أصحابه»[٣٥].

يؤكد هذا النص أهمية الكتاب المذكور، وقد اعتمد ياقوت خبَره مفصلاً جداً، ومن الواجب علينا أن نورده، وقد ذكره في معرض تعداده آثاره، وعلّق عليه بقوله:

«ومنها كتابه المشهور بالفضل، شرقاً وغرباً، المسمّى بكتاب اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام، قصد به إلى ذكر أقوال الفقهاء، وهم: مالك بن أنس، فقيه أهل المدينة بروايتين، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، فقيه أهل الشام، ومن أهل الكوفة، سفيان الثوري بروايتين، ثم محمد بن إدريس الشافعي، ما حدث به الربيع بن سليمان عنه، ثم من أهل الكوفة، أبو حنيفة النعمان بن ثابت، وأبو يوسف، يعقوب ابن محمد الأنصاري، وأبو عبدالله، محمد بن الحسن الشيباني، مولىً لهم، ثم إبراهيم بن خالد، أبو نصر الكلبي، وقد كان أولاً ذكر في كتابه بعض أهل النظر، وهو عبدالرحمن بن كيسان، لأنه كان في الوقت الذي عمله، ما كان يتفقه على مذهبه، فلما طال الزمان به، وفقّه أصحابه بسهو أسقطه من كتابه»[٣٦].

ولابد من الإشارة إلى أن الطبري قد قام برحلة علمية إلى الدينور ماضياً إلى طبرستان، وقد نقل لنا عبدالعزيز بن هارون قوله له: «ما يحسن بنا أن نجتمع ولا نتذاكر»، وقد تمت فعلاً الاجتماعات والمذاكرات، منها مذاكرة عبدالله بن حمدان ولقاؤه مع أبي بكر بن سهل الدينوري، وحضور الكسائي وغيرهما، وقد قال في ختام مناظرة إبن حمدان في المسند «هذا خطأ من جهة كذا، ومثلي لا يذاكر به! فيخجل وينقطع».

وتتضح لنا من خلال هذه الرحلة العلمية فيما رواه ياقوت كثرةُ المناظرات، وما يتبع ذلك من بغضاء وشحناء، وقد أدى ذلك بالتالي إلى تألب العلماء عليه، فكثر الحاقدون والحاسدون والموتورون من بعض المحدثين والفقهاء والحنابلة بشكل خاص. يقول ياقوت: «فلما قدم إلى بغداد من طبرستان بعد رجوعه إليها تعصّب عليه أبو عبدالله الجصّاص، وجعفر بن عرفة، والبيّاضيّ[٣٧]، وقصده الحنابلة، فسألوه عن أحمد بن حنبل في الجامع، يوم الجمعة، وعن حديث الجلوس على العرش، فقال أبو جعفر: أما أحمد بن حنبل، فلا يُعدّ خلافه، فقالوا له: فقد ذكره العلماء في الاختلاف، فقال: ما رأيته رُوِيَ عنه، ولا رأيت له أصحاباً يعوّل عليهم. وأمّا حديث العرش فمحال، ثم أنشد:

سبحان من ليس له أنيسُ ولا له على عرشه جليس

فلما سمع ذلك الحنابلة منه وأصحاب الحديث، وثبوا ورَمَوْه بمحابرهم، وقيل: كانت أُلوفاً فقام أبو جعفر بنفسه ودخل داره، فرموا داره بالحجارة، حتى صار على بابه كالتل العظيم، وركب «نازوك»، صاحب الشرطة في عشرات ألوف من الجند يمنع عنه العامة، ووقف على بابه يوماً إلى الليل وأمر برفع الحجارة عنه، وقد كان كتب على بابه:

Page 21

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

سبحان من ليس له أنيس ولا له على عرشه جليس

فأمر نازوك بمحو ذلك، وكتب مكانه بعض أصحاب الحديث:

لأحمد منزلٌ لا شكّ عالٍ إذا وافى إلى الرحمن وافدْ
فيُدنيه ويُقعدُه كريمًا على رغم لهم في أنفٍ حاسدْ
على عرشٍ يُغلّفه بطيبٍ على الأكباد من باغٍ وعاندْ
له هذا المقام الفَرْدُ حقاً كذاك رواه ليث عن مجاهدْ

فخلا في داره، وعمل كتابه المشهور في الاعتذار إليهم، وذكر مذهبه واعتقاده، وخرّج من ظنّ فيه غير ذلك، وقرأ الكتاب عليهم، وفضّل أحمد بن حنبل، وذكر مذهبه وتصويب اعتقاده، ولم يزل في ذكره إلى أن مات. ولم يخرج كتابه في الاختلاف حتى مات، فوجدوه مدفوناً في التراب، فأخرجوه ونسخوه، أعني: «اختلاف الفقهاء...»[٣٨]

هذا النص الذي أورده ياقوت على غاية من الأهمية في تاريخنا الفكري، فهو يوضح لنا أموراً كثيرة ذات أبعاد كبرى ودلالات هامة.

أولها: اضطهاد الحرية المذهبية، وهذا مؤشر خطير في قدسية الحياة الفكرية والدينية، فما جعله يفضّل اعتزال الناس والخلود إلى الخلوة في داره، ودفن آثاره في التراب حتى وافته منيته، فأخرجها الناس بعد موته ومنها اختلاف الفقهاء. وكان هذا من تدبير فئة متطرفة من الحنابلة.

ثانيها: موقف الطبري من أحمد بن حنبل، ورأيه فيه أنه لا علاقة له في أصول الاختلاف، لأنه محدث، وليس بصاحب مذهب معين في الفقه.

وثالثها: موقف المحدثين منه ومن آرائه في الاختلاف، ولا سيما أنه «كان له قدم في علم الجدل، يدل على ذلك مناقضاته في كتبه على المعارضين لمعاني ما أتى به»[٣٩].

يضاف إلى ذلك ـ كما يقول ياقوت ـ أنه «كان راجحاً في علوم القرآن، والقراءات، وعلم التاريخ من الرسل والخلفاء والملوك واختلاف الفقهاء مع الرواية»[٤٠].

كان الطبري في نظر معظم الناس إماماً مجتهداً، أوتي من سعة العلم، وصواب الرأي، ونفاذ البصيرة، ولا أشك أن أحداً من أعدائه أو أصدقائه من ينكر عبقريته في مؤلفاته عامة، ومؤلفيه الموسوعيين المشهورين في تفسيره وتاريخه وغيرهما أو يتنقصها، ويكفي أن نطّلع على ما كتبه من ترجموا له حياته.

هذه العقلية المتفتحة في تدبّر الأحكام الدينية والفقهية وثورته على الجمود العقلي، واعتماده على الاجتهاد فيما وافق العقيدة والنص جعلت بعض الفقهاء من الحنابلة والمحدثين يوقعون به، ويوغرون عليه العامة، فيهاجمون في مجلسه العلمي، ويرجمون داره.

يختلف العلماء في كل زمان ومكان، وإختلاف الأئمة رحمة، والغريب حقاً أن يؤدي الخلاف في وجهات نظر إلى اثارة العامة، ويحتاج صاحب الشرطة نازوك إلى عشرات الألوف من الجند ليحمي هذا الإنسان العالم.

وآخر هذه الأمور أن هذا النص يؤكد أن الطبري كان متسامحاً لا يفرق بين المذاهب الإسلامية وطوائفها، فقد انتصر لعلي بن أبي طالب حين تعرّض بعضهم ـ كما رأينا ـ لأحاديث الغدير، وعلل بعضهم ذلك لأنه كان يتشيّع. وصفه الذهبي بأنه «ثقة صادق، فيه تشيع يسير، وموالاة لا تضرّ...»[٤١].

وخلص الذهبي إلى القول: «... بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما ندّعي عصمته من الخطأ، ولا يحل أن نؤذيه بالباطل والهوى، فانه كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يُتأنّى فيه، ولا سيّما في مثل إمام كبير...»[٤٢].

وعلّق ابن حجر على الذهبي بقوله: «وإنما نبذ[٤٣] بالتشيع لأنه صحّح حديث غدير خمّ»[٤٤].

هذا الخبر يؤكد أنه عُدَّ عند بعض العلماء من الشيعة لموقفه من علي(ع)، وتصحيحه حديث غدير خم.

وعده أبو حيان من الامامية حين أورد كلام السليماني في الكلام على «الصراط» في أوائل تفسيره: «وقال أبو جعفر الطبري، وهو من أئمة الإمامية «الصراط» بالصاد لغة قريش إلى آخر المسألة»[٤٥]. وربما كان نسبة إلى الآملي.

وجدير بالذكر هنا أن الطبري كان يدافع عن علي(ع) في مجالسه العلمية، وقد أخرج ابن عساكر عمّن روى عن الطبري سماعاً في قوله: «وجرى ذكر علي(ع)...» والسؤال المتعلق بإمامتي أبي بكر وعمر وموقفه في مجلسه من ذلك.

يضاف إلى ذلك كله أن الطبري أورد ما يتعلق بغدير خم في كتاب مستقل، وهو في مجلدين ضخمين، كما رآه البرزالي، ولا نعرف عن وجود الكتاب شيئاً، وربما كان من جملة كتبه المفقودة.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

هذه قصة الكتاب المدفون في القديم، وقد نوَّهنا في مطلع الكلام بفضل المستشرق كرن في بعثه من مرقده في العصر الحديث، إذ أخرجه إخراجاً سليماً، وذكر أنه استعان بمشورة بعض العلماء المصريين الأفاضل، ونوّه كثير بناظر المكتبة الخديوية الأستاذ موريتس، والطريف أنه أرّخ بحساب الجمّل تاريخ طبعه قبل تسعين عاماً هجرياً وسبعة وثمانين ميلادياً، ومن المعروف في حساب الجمّل أنه يكون بالحساب الهجري عادة، ولكنه قد شفعه بالتأريخ الميلادي على غير ما هي العادة فـي كتب التراث العربي والاسلامي.

(جـلبـوا يا طالـبي تاريخـه	(ها ك انتهى طبع اختلاف الفقهاء
٤١ + ١١ + ٥٢ + ١٢١٦	٢٦+٤٦٦+٨١+١١١٢+٢١٧
١٣٢٠ هـ	١٩٠٢ م

والملاحظ أنـه أنهى التاريخ الهجري بـ(ها)، وهذا غير معروف في الجمّل.

المقـام المحمـود

تكمن محنة الطبري في موقفه من «المقام المحمود» الوارد في سورة الاسراء في قوله تعالى:

﴿ومن الليل فتهجّد به نافلةً لك، عسى أن يبعثَك ربُّك مَقاماً محموداً...﴾[٤٧].

سُئل الطبري في مجلس الجمعة عن «المقام المحمود»، فأجاب على ذلك بقوله: «وأمّا حديث العرش فمحال...».

يخالف هذا الجواب ما أورده في تفسيره الكبير، ولابد لنا من بحث هذا الموضوع الخطير بشكل دقيق نظراً لأهمية ذلك في المحنة التي حلّت بالطبري، من الحنابلة وبعض المحدثين ومن تَبِعَهُم من عامة الناس.

شرح الطبري القسم الأول من الآية بقوله:

«يقول، تعالى ذكره، لنبيّه محمد، صلّى الله عليه وسلم: ومن الليل فاسهر بعد نومة، يامحمد، بالقرآن نافلة لك خالصة دون أمتك» واستطرد فتحدث عن المعنى للتهجد، وفسّره بالتيقظ والسهر بعد نومة من الليل، وفرّق بين هذا اللفظ والهجـود وهـو النوم نفسه، واستشهد بشواهد من شعر الحطيئة وغيره. وخلص بعد هذا كله ليقول: «وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أصل التأويل»[٤٨].

أكـد الطبري تفسيره بما رواه من أحاديث عن علقمة والأسود، وعن عبدالرحمن بن الأسود؛ وعن علقمة والأسود بمثله، وعن علقمة وعن الحسن، وعن الحجاج بن عمرو، بتواتر مختلف ليؤكد أن «التهجد بعد نومة»، أو «بعد النوم»، أو «بعد رقدة»[٤٩].

ثم انتقل إلى قوله تعالى: «نافلة لك»، فبدأ بتفسيره كما يعتقد بقوله: «يقول: نفلاً لك عن فرائضك التي فرضتُها عليك»[٥٠].

واستطرد الطبري فذكر اختلاف المفسرين وجعلهم في قسمين: «واختلاف في المعنى الذي من أجله خُصّ بذلك رسول اللّه(ص)، مع كون صلاة كل مصلٍّ بعد هجوده (إذا كان قبل هجوده قد كان أدّى فرائضه) نافلةً نفلاً إذ كانت غير واجبة عليه، فقال بعضهم: معنى خصوصه بذلك هو أنها كانت فريضة عليه، وهي لغيره تطوّع. وقيل له: أقمها نافلة لك، أي فضلاً لك من الفرائض التي فرضتها عليك عـمّا فرضتُ على غيرك»[٥١].

استشهد الطبري بعد هذا الحديث المستفيض بابن عباس: «يعنـي بالنافلة أنها للنبي(ص) خاصة، أمر بقيام الليل وكتب عليه».

وانتقل الطبري إلى القسم الثاني من المفسرين لأوائل هذه الآية، ويبدو أنه كان غير مطمئن لما ورد فيها، ومن عادته أنه يقدم الأصوب ثم يذكر الأضعف أو ما كان موضع الخلاف.

يقـول الطبري: «وقال آخرون: بل قيل ذلك له، عليه السلام، لأنه لم يكن فعله ذلك يُكفّر عنه شيئاً من الذنوب، لأن اللّه، تعالى، كان قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكان له نافلةُ فضل، فأمّا غيره فهو له كفارة، وليس هو له نافلة»[٥٢].

وأورد الطبري ذكر من قال ذلك نقلاً عن مجاهد، «قال: النافلة للنبي(ص) خاصة من أجل أنه لا يعمل ذلك في كفّارة الذنوب، فهي نوافل وزيادة، والناس يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفّارتها، فليست للناس نوافل»[٥٣].

يقارن الطبري بين القولين: قول ابن‌عباس وقول مجاهد وينتصر للرأي الأول الذي أخذ به، ويناقش مجاهد في صحة رأيه في تعليقه: «وأولى القولين بالصواب في ذلك القول الذي ذكرنا عن إبن عباس»[٥٤].

Page 21

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

وعلل هذا التفضيل بينهما بقوله: «وذلك أن رسول الله(ص) كان الله تعالى قد خصّه بما فَرَضَ عليه من قيام الليل دون سائر امته. فأمّا ما ذُكر عن مجاهد في ذلك، فقولٌ لا معنى له، لأن رسول الله(ص) فيما ذُكر عنه، أكثر ما كان استغفاراً لذنوبه بعد نزول قول الله عزّ وجلّ، عليه ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك و ما تأخر﴾ وذلك أن هذه السورة أنزلت عليه بعد منصرفه من الحديبية، وأنزل عليه ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ عامَ قُبض، وقيل له فيها: ﴿فسبحّ بحمد ربّك واستغفره إنه كان توّاباً﴾، فكان يعدُّ له(ص) في المجلس الواحد استغفار مائة مرة، ومعلوم أن الله لم يأمره أن يستغفر إلا لما يُغْفَرُ باستغفاره ذلك، فبيّن إذاً وجه فساد ما قاله مجاهد»[٥٥].

ولم يكتف الطبري بهذا الرد والقول الفصل وإنما ختمه بحديثين:

أولهما مرويّ عن أبي أمامة يقول فيه: «إنها النافلة للنبي(ص) خاصة».

وثانيهما مروي عن قتادة: «(نافلة لك) قال: تطوّعاً وفضيلة لك»[٥٦].

حرصت على إيراد التفسير للقسم الأول لأوضّح أن الطبري كان يختلف مع مجاهد في الرأي وذكر بصريح العبارة فساد ما قاله، وهذا التقديم يوضّح أشياء خطيرة في الخلاف الذي أورده الطبري في القسم الثاني من آية المقام المحمود.

ابتدأ الطبري كعادته بتفسيره الشخصيّ لتتمة قوله المكمل لما بدأنا به في قوله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربك مَقاماً محموداً﴾.

وقد أطال الوقوف عند (عسى)، وذكر أنها من الله واجبة، وأن (عسى) و (لعل) في الاستخدام القرآني «من الله واجبة»[٥٧].

وانتقل الطبري بعد ذلك فأعطى الشرح العام بقوله: «وتأويل الكلام: أقم الصلاة المفروضة، يامحمد، في هذه الأوقات التي أمرتك بإقامتها فيها، ومن الليل فتهجّد فَرضاً فرضتُه عليك، لعلّ ربّك أنْ يبعثك يومَ القيامة مقاماً تقوم فيه محموداً تحمده وتَغْبِطُ فيه، ثم اختلف أهل التأويل في معنى ذلك المقام المحمود»[٥٨].

صنف الطبري الاختلاف عند أهل التأويل ضمن مذهبين:

المذهب الأول

وهو الذي أقرّه أكثر أهل العلم:

«المقام المحمود... ذلك هو المقام الذي هو يقومه، صلّى الله عليه وسلم، يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم...»[٥٩].

وأورد الطبري كعادته ذكر الذين ذهبوا هذا المذهب رواية عن حذيفة، وابن عباس، وعبدالله، والحسن، ومجاهد، وسلمان، وقتادة. وقد تكررت رواية بعض المحدثين باختلاف سند الرواية كما هو الأمر عند حذيفة ومجاهد وغيرهما.

المذهب الثاني

وهو مذهب ورد في رواية آخرين. وقد اقتصر فيه الطبري على ذكر رواية ليث عن مجاهد، كما أوردها الطبري:

«وقال آخرون: بل ذلك المقام المحمود الذي وعد الله نبيه، صلّى الله عليه وسلم، أن يبعثه اياه، هو أن يقاعده منه على عرشه». ثم استطرد الطبري، فذكر من قال ذلك: «حدثنا عباد بن يعقوب الأسدي قال: حدثنا ابن فضيل عن ليث عن مجاهد في قوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال: يُجْلِسُهُ معه على عرشه»[٦٠].

ناقش الطبري المذهبين معاً في التأويل، ورجّح الصواب في نظره، وشفع رأيه بما يؤكد رجحانه، وقد اعتمد على ما أورده في تفسيره بما يتعلق بالكرسيّ، والعرش، وهل الكرسي هو العرش نفسه أم هو علم الله وملكه وسلطانه؟!

يقول: «وأولى القولين في ذلك بالصواب ما صحّ به الخبر عن رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، ماحدثنا به أبو كريب... عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ سُئل عنها، قال: هي الشفاعة[٦١].

وتابع الطبري ذكر جماعة من المحدّثين الذي يؤكدون هذا المذهب نقلاً عن كعب بن مالك، وعبدالله بن عمر، وابن مسعود، وعلي بن الحسين، وابن عمر، واختتم ذكرهم بما أورده في رواية ثانية منقولة عن كعب بن مالك في ذات المعنى، وهو

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

«أن رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلم، قال يحشر الناس يوم القيامة، فأكون، أنا وأمتي على تلّ، فيكسوني ربّي، عزّ وجلّ، حُلّةً خضراء، ثم يُؤْذَنُ لي، فأقول ما شاء اللّه أن أقول، فذلك المقام المحمود»[٦٢].

لم يكتف الطبري بهذا التوثيق كله لمفهوم المقام المحمود، وإنما تدبّر أمر جماعة المذهب الثاني، اي جماعة مجاهد، وناقش بكل موضوعية آراءها، وجعلها في ثلاثِ فرق، ووضّح بعمق آراء كل فرقة على حدة، وارتأى أن ما ذكره مجاهد غير مرفوض وغير مدفوع صحته، لا من جهة خبر، ولا من جهة نظر.

يقول الطبري: «... وهذا، وإن كان هو الصحيح من القول في تأويل قوله (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) لما ذكرنا من الرواية، عن رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلم، وأصحابه والتابعين، فان ما قاله مجاهد من أن اللّه يقعد محمداً، صلّى اللّه عليه وسلم، على عرشه قول غير مدفوع صحته، لا من جهة خبر، ولا نظر، وذلك لأنه لا خبر عن رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلم، ولا عن أحد من أصحابه ولا عن التابعين بإحالة ذلك، فأمّا من جهة النظر فإن جميع من ينتحل الإسلام إنما اختلفوا في معنى ذلك على أوجه ثلاثة»[٦٣].

ومما يلفت النظر حقاً في هذا الباب أن الطبري أورد آراء الفرق الثلاث بكل أمانة وموضوعية.

رأي الفرقة الأولى

تعتقد هذه الفرقة أن «اللّه، عزّل وجلّ، بائن من خَلْقه، كان قبل خلقه الأشياء، ثم خلق الأشياء فلم يماسّها، وهو كما لم يزل، غير أن الأشياء التي خلقها إذ لم يكن هو لها مماسّاً، وجب أن يكون لها مبايناً، إذ لا فعال للأشياء إلا وهو مماسّ للأجسام، أو مباين لها.

قالوا: فإذ كان ذلك كذلك، وكان اللّه، عزّ وجل، فاعل الأشياء، ولم يَجُزْ في قولهم أنه يوصف بأنه مماسّ للأشياء وجب بزعمهم أنه لها مباين.

فعلى مذهب هؤلاء سواء أَقْعَدَ محمداً على عرشه، أو على الأرض، إذ كان من قولهم أن بينونته من عرشه، وبينونته من أرضه، بمعنى واحد في أنه بائن منهما كليهما غير مماسٍّ لواحد منهما»[٦٤].

رأي الفرقة الثانية

تعتقد الفرقة الثانية أن اللّه، تعالى ذكره، كان «قبل خلقه الأشياء لا شيء يماسه، ولا شيء يُباينه، ثم خلق الأشياء، فأقامها بقدرته، وهو كما لم يزل قبل خلقه الأشياء لا شيء يماسّه، ولا شيء يباينه، فعلى قول هؤلاء أيضاً، سواء أَقْعَدَ محمداً، صلّى اللّه عليه وسلم، على عرشه، أو على أرضه، إذ كان سواء على قولهم عرشه وأرضه في أنه لا مماسّ، ولا مباين لهذا، كما أنه لا مماس ولا مباين لهذه»[٦٥].

الفرقة الثالثة

تعتقد هذه الفرقة أن اللّه، عزّ ذكره، كان «قبل خَلْقه الأشياء، لا شيءَ يُماسُّه، ولا شيء يباينه، ثم أحدث الأشياء وخلقها، فخلق لنفسه عرشاً استوى عليه جالساً، وصار له مماسّاً، كما أنه قد كان قبل خلقه الأشياء، لا شي يرزقه رزقاً، ولا شيء يحرمه ذلك، ثم خلق الأشياء، فرزق هذا، وحرم هذا، وأعطى هذا، ومنع هذا.

قالوا: فكذلك كان قبل خلقه الأشياء، لا شيء يُماسّه ولا يباينه، وخلق الأشياء، فماسَّ العرش بجلوسه عليه، دون سائر خلقه، فهو مماسّ ما شاء من خلقه، ومباين ما شاء منه.

فعلى مذهب هؤلاء أيضاً، سواء أَقْعَدَ محمداً على عرشه، أو أقعده على منبر من نور، إذ كان ـ من قولهم ـ أن جلوس الرب على عرشه ليس بجلوس يشغل جميع العرش، ولا في إقعاد محمد، صلّى اللّه عليه وسلم، مُوجباً له صفة الربوبية، ولا مخرجة من صفة العبودية لربّه، كما أن مباينة محمد، صلّى اللّه عليه وسلم، ما كان مباينـاً له من الأشياء، غير موجبة له صفة الربوبية، ولا مخرجته من صفة العبودية لربّه من أجل أنه موصوف بأنه له مباين، كما أن اللّه عزّ وجلّ، موصوف على قول قائل هذه المقالة بأنه مباين لها كما هو مباين له.

قالوا: فإذا كان معنى (مباين) و (مباين) لا يوجب لمحمد، صلّى اللّه عليه وسلّم، الخروج من صفة العبودية، والدخول في معنى الربوبيّة، فكذلك لا يُوجب له ذلك قعودُه على عرش الرحمن»[٦٦].

وخلص الطبري إلى قوله ملخصاً ما أورده ومعبراً عن رأيه الخاص: «فقد تبين إذاً بما قلنا أنه غير محال في قول أحد ممن

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

ينتحل الإسلام ما قاله مجاهد من أن الله تبارك وتعالى، يقعد محمداً على عرشه، فإن قال قائل: فإنّا لا ننكر إقعاد الله محمداً على عرشه، وإنما ننكر إقعاده معه»[٦٧].

لاحظ الطبري أهمية ما يورده من آراء، وخاصة المذهب الأخير، ورأى بثاقب بصيرته أن يوثق رأيه هذا بما أورده من حديث عبدالله بن سلام.

«قال: إن محمداً، صلّى الله عليه وسلّم، يوم القيامة على كرسيّ الربّ بين يَدَيْ الربّ، تبارك وتعالى، وإنما ينكر إقعاده إياه معه. قيل: أفجائز عندك أن يقعده عليه لا معه؟!

فإن أجاز ذلك صار إلى الإقرار بأنه إمّا معه، أو إلى أنه يقعده، والله للعرش مباين، أوّ لا مماسّ ولا مباين، وبأيّ ذلك قال كان منه دخولاً في بعض ما كان ينكره.

وإن قال: ذلك غير جائز كان منه خروجاً من جميع الفرق التي حكينا قولهم. وذلك فراق لقول جميع من ينتحل الاسلام، إذ كان لا قول في ذلك إلّا الأقوال الثلاثة التي حكيناها، وغير محال في قول منها ما قال مجاهد في ذلك»[٦٨].

هكذا ناقش الطبريّ قضية جلوس محمد(ص) على عرش الله، عزّوجلّ،في هذا المقام المحمود، ورأى أن جماعة المذهب الثاني، وهم جماعة مجاهد، قد قالت: انّ الله يقعد محمداً(ص) على عرشه، وعلّق الطبري على ذلك، فذكر أن هذا القول غير مدفوع صحته، لا من جهة النظر، ولا من جهة الخبر.

لم يكتف الطبريّ بذلك، وإنما تعمق في هذا الرأي الأخير، وذكر آراء ثلاث فرق، وناقش كل فرقة على حدة، وهكذا ترك للناس حرية الاقتناع إيماناً منه بحرية الرأي في العقيدة والمذهب والاجتهاد.

والغريب أن نجد الطبري في مجلسه العلمي يوم الجمعة الذي كان شؤماً عليه، أن يغيّر أسلوبه في المناقشة، فيصّر أمام مناظريه من الحنابلة والمحدثين على أن الجلوس على العرش والقعود مع الله حرام، وهذا نابع من إيمانه أن محمداً(ص) بشر مثلكم، وينفي أن يعطيه صفة الربوبية، إيماناً منه بالعبودية المطلقة لله الواحد الأحد، والفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

اهتم بعض المفسرين بالجانب اللغوي، بالإضافة إلى الجانب الإصطلاحي، نشير مثلاً إلى الإمام الطّبرسيّ، (أمين الدين، أبو علي، الفضل بن الحسن بن الفضل المتوفى سنة ٥٤٨هـ) وهو مفسّر محقق لغوي، ومن أجلاء الإمامية، وقد شرح «المقام المحمود» بقوله: «والمقام بمعنى البعث، فهو مصدر من غير جنسه، أي يبعثك يوم القيامة بعثاً أنت محمود فيه، ويجوز أن يجعل (البعث) بمعنى الإقامة، أي: أثرته وأقمته، فيكون معناه: يقيمك ربك مقاماً يحمدك فيه على جميع الخلائق، تسأل فتُعطي، وتشفع فتُشفّع...»[٦٩].

واستطرد فذكر أن (المقام المحمود) هو مقام الشفاعة، وهو المقام الذي يشفع فيه للناس، وهو المقام الذي يُعطي فيه لواء الحمد، فيُوضع في كفّه، وتجتمع تحته الأنبياء والملائكة، فيكون أوّل شافع وأوّل مشفّع»[٧٠].

كما اعتمد المفسرون المحدوثون على ما فسّره السابقون في هذا الموضوع جملة وتفصيلاً، وقد استرعى انتباهي الاتجاه اللغوي في تفسير المقام المحمود، وفيه كثير من التشابه، فقد ذكر أنه «من الممكن أن يكون مصدراً ميمياً، وهو البعث، فيكون مفعولاً مطلقاً ليبعثك من غير لفظه. والمعنى: عسى أن يبعثك ربك بعثاً محموداً.

ومن الممكن أن يكون اسم مكان، والبعث بمعنى الإقامة، أو مضمناً معنى الإعطاء ونحوه. والمعنى: عسى أن يقيمك ربّك في مقام محمود، أو يبعثك معطياً لك مقاماً محموداً، أو يعطيك باعثاً».

والملاحظ في هذا القول الاهتمام بالتفسير اللغوي كما رأينا عند الطبرسي، واستخدم التأويل في التضمين اللفظي، ولكن الطباطبائي لم يخرج في التفسير المعنوي عمّا ورد عند السابقين، وهذا يتّضح في قوله:

«وقد وصف، سبحانه، مقامه بأنه محمود، وأطلق القول من غير تقييد، وهو يفيد أنه مقام يحمده الكل، ولا يثني عليه الكل إلا اذا استحسنه الكل، وانتفع به الجميع، ولذا فسروا (المقام المحمود) بأنه المقام الذي يحمده عليه جميع الخلائق، وهو مقام الشفاعة الكبرى له، صلّى الله عليه وآله وسلم، يوم القيامة وقد اتّفقت على هذا التفسير الروايات من طريق الفريقين، عن النبي، صلّى الله عليه وآله وسلم، وأئمة أهل البيت، عليهم السلام»[٧١].

ولابدّ لنا بعد هذا العرض المفصّل من الإشارة الختامية

Page 21

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

لتفسير معنى (المقام المحمود) لغويا واصطلاحياً إلى إيراد الملاحظات التالية إجمالاً لما أوردناه.

١ـ يعتقد الطبريّ أن «المقام المحمود» خاص بـ«الشفاعة الكبرى» وحدها، وهو المذهب الأول المعتمد الذي أجمع عليه المفسرون جميعاً من المسلمين، وهو ما صح به الخبر، وهو أولى القولين بالصواب.

٢ـ لم يرفض الطبري المذهب الثاني، وهو رأي مجاهد وجماعته، لأنه يعتقد أن إقعاد النبي محمد(ص) على العرش غير مدفوع صحته، لا من جهة الخبر، ولا من جهة النظر.

٣ـ صنف الطبري المذهب الثاني في ثلاث فرق، وعرض آراءها، وأيّد ما أورده أئمتها، لكنه توقف عند الفرقة الثالثة من المذهب الثاني،، وهي التي تعتقد أن محمّداً(ص) مع الله، أو أنه يقعده، والله للعرش مباين، لا مماسّ، ولا مباين، وعدّ هذا التفسير مخالفاً لجميع الفرق السابقة التي أورد أقوالها، وغير محال منها ما قال مجاهد في ذلك.

٤ـ لم ينقل العلما- من المحدثين والحنابلة، من أخبار المناظرة الطبرية، في مجلس الجمعة، حيث كان يدرس، الا رأيين مجملين:

ـ أولها رأي الطبري في أحمد بن حنبل، وهو رأيه الخاص فيه.

ـ ثانيها قول الطبري: «وأما حديث العرش فمحال»[٧٢].

فمن الطبيعي أن يعرض الطبري آراءه التي أوردها في تفسيره المشهور، بيْد أننا لا نعرف بالتالي آراء العلماء والمحدثين في هذه المناظرة التاريخية المحتدمة.

ومن المؤكد عندنا أن الطبري، كما عرفناه، صحيح العقيدة، صلب الرأي، لا يتزحزح عن رأيه، وإنما كانت محنته لموقفه الخاص من الحنابلة الذي ألبوا عليه «عوام الحنابلة ورعاعهم» كما نعتهم ابن كثير.

٥ـ ولابدّ من الإشارة هنا إلى أن المقصود بالحنابلة هم طائفة من الحنابلة المتعصبة القائلة بالتجسيم، وهي التي ردّ آراءها في الفرقة الثالثة.

يؤكد ما نذهب اليه أن بعض المؤرخين الذي ترجموا له كالذهبي وابن العمّاد الحنبلي قد أثنوا عليه مشيدين بعلمه وفضله. يضاف إلى ذلك أن العلماء الحنابلة الذين أوردنا ذكرهم ممن اشتركوا في إثارة محنة الطبري ليسوا من العلماء الذين خلّفوا لنا تصانيف يُعتدُّ بها كما هو الحال عند العلماء الحنابلة المنصفين المتأخرين، فقد روي عن ابن تيمية أنه أثنى عليه ونوّه كثيراً بتفسيره الكبير[٧٣].

ويبدو أن هذين العالمين الجليلين، على الرغم من تأخر ثانيهما زمنياً، فقد جمعتهما المحنة العلمية، وامتحنهما الله بسبب اجتهادهما، وكان إجماع الناس على فضلهما وحبهما ما يجعل المحنة منحة إيمانية مطلقة.

الكتاب المدفون

يرجع الفضل في نشر المشتّت المتبقي من كتاب «اختلاف الفقهاء» وهو الذي دفنه الطبري، خوفاً عليه، وذلك حلّت به المحنة الكبرى بسبب رأيه في «المقام المحمود» إلى المستشرق الألماني الدكتور فريدريك كِرْن، الذي اهتمّ به اهتماماً خاصاً، نظراً لأهميته بين آثار المؤلف، وقد أهداه بقوله: «إلى معلمي العزيز الشيخ جولدزهر المجريّ الأزهريّ».

وصف كِرْن عمله في مقدمته الهامة بقوله: «نقلت نسخة المكتبة الخديوية بالقاهرة، من جامع محمد أفندي، الشهير بالكردي، وقد كانت سابقاً من ضمن الكتب التي وقفها الأستاذ جمال الدين محمود بن علي الظاهري، في سنة ٧٩٧هـ على مدرسته التي أنشأها بالقاهرة»[٧٤].

وتابع كرن وصف مخطوطة الكتاب، فذكر أنها ليس بها تاريخ نسخ معروف، إلّا أن خطها يشبه خطوط المائة الخامسة، وكاتبها الناسخ محمد بن أحمد بن إبراهيم الإمام، وهو غير معروف، وقد تكرر ذكر اسمه في بعض خواتم كل قسم من أقسامه أكثر من مرة.

واستطرد المحقق فذكر أن «الموجود منها ١١٣ ورقة، وهي تحتوي على كتاب المدبر[٧٥]، وهو كراسان، إلّا أنه فقد منه.

بقي من الثاني الورقة الأولى والأخيرة فقط. كراس من كتاب البيوع. كراسان فيهما آخر كتاب الصرف وجميع كتاب السلم. الكراس الأول من المزارعة والمساقاة، كتاب الغصب وهو كراسان، إلّا أنه بقي من الأول الورقة الأولى والأخيرة. كتاب الضمان إلّا أنه فقد كراريس من أوله»[٧٦].

كما أضاف كِرْن أن أحد العلماء أبلغه أنه رأى «جزءاً آخر

Page 21

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

في إحدى مكتبات القسطنطينية»[٧٧].

يضاف إلى «اختلاف الفقهاء» جزء آخر أو جزءان يتألف منها كتاب منسوب إلى الطبري، اطّلع عليه كِرْن في فهرس مكتبة عاشر أفندي بالقسطنطينية، وهو «كتاب الجهاد والجزية»، ورجّح أنه ربما كان جزءاً من كتاب الاختلاف أو اللطيف، أو غيرهما.

لا نعرف فيما اطلعنا عليه من آثار الطبري وجود كتاب له بهذا العنوان. ويبدو أنه فيما نعتقد، أحد أجزاء الاختلاف، أو جزءان من أجزائه، وهي بعنوان كتاب الجهاد، و كتاب الجزية، وهكذا يصبح الإختلاف مؤلفاً من تسعة أجزاء، أو تسعة كتب، كما اصطلح الطبري على تسميتها في كتابه الكبير المدفون، وقد تكشف الأيام لنا بعض ما لاعجب إن قلنا: إنّ معظم الكتاب مفقود. فقد أُخرج من التراب بعدما أخفاه الطبري في محنته الكبرى، وهذا بالطبع أدّى إلى تلف بعض أجزائه بسبب الرطوبة. يضاف الى ذلك وجود خروم كثيرة في الكتاب وأجزاء مطموسة بسبب ذلك.

هذا كله يؤكد أن معظم الكتاب مفقود، والدليل على ذلك أن مرتضى الزبيدي، صاحب (تاج العروس في شرح القاموس) قد استدرك منه بابين في كتابه إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار علوم الدين للامام الغزالي، في شرحه الباب الأول من كتاب النكاح، في قوله «وقرأت في كتاب اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبري ما نصّه...»[٧٨] وهو ملحق بالكتاب المطبوع نقلاً عن المصدر المذكور.

هذا كله يؤكد الحاجة الماسة إلى التفتيش عن مخطوطات هذا الكتاب الذي نكب صاحَبه، ونُكب به صاحبُه، وضرورة جمع المتفرق منه في بواطن الكتب المخطوطة أو النقول منه من الكتب المطبوعة، وذلك لكي نكمل العمل القيم الذي بدأه المستشرق الألماني كرن.

ومن الفائدة أن نعرض مضمون كتاب اختلاف الفقهاء لبيان أهمية الموضوعات التي بحثها الطبري، وذكر بعض الملاحظات العلمية التي استرعت انتباهي من خلال الاطلاع عليه.

لم نجد في الكتاب خطبة المؤلف التي تشفع عادة بالبسملة والتشهد والحمد له والتصلية، وإنما اقتصر أحياناً على ما كتبه النساخ أو الطلبة في كل جزء حين الإملاء من قبل المؤلف، وقد يختتم بذكر كاتبه، محمد بن أحمد بن إبراهيم الإمام.

القسم الأول يتضمن الكتاب الموضوعات التالية:

١ـ كتاب المدبر ١ ـ ٣٠.
٢ـ كتاب البيوع ٣١ ـ ٥٥.
٣ـ كتاب الصرف ٥٦ ـ ٦٧.
٤ـ كتاب السلم ٦٨ ـ ١١٦.
٥ـ كتاب المزارعة والمساقاة ١١٧ ـ ١٤٤.
٦ـ كتاب الغصب ١٤٥ ـ ١٦١.

القسم الثاني:

كتاب الضمان ١ ـ ١٢٢.

رقم الأخير ترقيماً مستقلاً ونرى من الفائدة تبيان مضمونه لأهمية الموضوعات التي بحثها واتساع المؤلف فيما يتعلق بالضمان والكفالة والحوالة، وهي التالية:

أ ـ القول في الكفالة بالمال إلى الآجال ٧ ـ ١٢.
ب ـ القول في الجماعة يضمنون عن رجل عليه ١٢ ـ ٢٥.
جـ ـ القول في أحكام الكفالة بالنفس ٢٥ ـ ٥١.
د ـ القول في الألفاظ التي تصح بها الكفالة وتلزم ٥١ ـ ٦٢.
هـ ـ القول في حكم الرجال يأمر رجلاً أن ينقد رجلاً عنه مالاً محدود المبلغ ٦٢ ـ ٦٦.
و ـ القول في كفالة العبد بنفس رجل لرجل وضمانه له مالاً له عليه ٦٦ ـ ٧٢.
ز ـ القول في كفالة متكفّل بنفس صبي ٧٢ ـ ٧٥.
ح ـ القول في كفالة العبد عن سيده ٧٥ ـ ٧٦.
ط ـ القول في الكفالة عن المكاتب وكفالة المكاتب ٧٦ ـ ٨٦.
ى ـ القول في العبد يكون بين اثنين ٨٦ ـ ٨٧.
ك ـ القول في كفالة أهل الذمة ٨٧ ـ ٨٩.
ل ـ القول في كفالة المرتدّ ٨٩ ـ ٩٢.
م ـ القول في حكم كفالة الحربي المستأمن
ن ـ القول في حكم رجل يأمر بضمان ٩٣ ـ ٩٤.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

س ـ القول في حكم المدعي قبل رجلاً حقاً ٩٤ ـ ٩٥.
ع ـ القول في صلح الكفيل المكفول له في السلم عما كفل له ٩٥ ـ ١٠٠.
ف ـ القول في حكم كفالة المريض ١٠٠ ـ ١٠٥.
ص ـ القول في حكم الرجل يبيع الرجل سلعة إلى أجل ١٠٥ ـ ١١٠.
ق ـ القول في حكم الكفالة عن مجهول لمجهول ١١٠ ـ ١١٢.
ر ـ القول في الكفالة بالحيوان والعروض ١١٢ ـ ١٢٢.

أبرز مايلاحظ من خلال عرض مضمون قضية واحدة هو هذا العمق والتحقيق والتوثيق، مما عرف به الطبري. يضاف إلى ذلك بيان وجهة نظره في التعليق على كل رأي من آراء الأئمة الذين يستشهد بهم موافقة أو مخالفة، وما كان عليه الإجماع عند بعضهم، وعدم الإجماع عند بعضهم الآخر.

ويختتم ذلك كله ببيان قوله الفصل بصيغة المتكلم أو الجمع، ومن هنا تكمن عبقرية الطبري وأهمية القضايا الاجتماعية المدروسة وبيان مضمونها والرأي فيها. كما لاحظنا من خلال بحث المضمون أهمية هذه الظاهرة الاجتماعية والاقتصادية، وهي شغل العالم الشاغلّ في العصر الحاضر.

إن هذه القضية تهم الناس في كل زمان ومكان وعند سائر الأمم في العالم، وقد خص المذاهب كلها من المسلمين وغيرهم.

منهج الطبري في الاختلاف

اعتمد الطبري على منهج علمي سديد، يمكن أن ندعوه بالمنهج الطبري، فاختار أعلام الأئمة المجتهدين من أصحاب المذاهب أو التفرد في بعض الآراء، ممن كانوا في نظره موثقين إمامة ورواية ودراية، وقد أوردنا ذكرهم من قبل اعتماداً على رواية ياقوت، واستثنى منهم أحمد بن حنبل لأنه لم يطلع على آراء له في الاختلاف، ولم يعرف من أصحابه من يعوّل عليه. وذلك لأنه في نظره لا يعدو كونه أحد المحدثين الأعلام، وربما كان غير واثق بآرائه في الاختلاف، ومن الطبيعي يبعده من الاستشهاد به في كتابه، وتلك هي حرية كل عالم يختار ما يوافقه رأياً واتجاهاً، فلم يطالب الحنابلة الطبري بذلك، ورأيه فيه معروف سلفاً.

حرص الطبري على إيراد القضايا الفقهية التي كانت موضع جدل واختلاف بين أئمة المذاهب، فقد كان يورد الآراء المستشهد بها إجماعاً أو اختلافاً أو قياساً أو قوة أو ضعفاً، وكانت شخصيته بارزة كثيراً في حسم كثير من الآراء، وذلك عن طريق القياس أو بيان العلل أو عدم صلاحها لمخالفتها النصوص المأثورة.

من شواهد منهجه في الاختلاف قوله:

«وقالوا جميعاً غير مالك»[٧٩] و«أجمع العلماء جميعاً لا خلاف بينهم»[٨٠]؛ كما كان يؤكد نُقوله وآراءه بإيراد العلل المعتمدة كما في قوله:

«وعلة من قال...»[٨١] وردت أربع مرات في صفحتين؛ و «علة من يقول...»[٨٢] و«علة القائلين...»[٨٣].

وقد يختتم بعض القضايا المعروضة ببعض تعابيره المأثورة والمعروفة عند طلابه ومريديه والنساخ من مثل قوله:

«والصواب من القول في ذلك عندنا...»[٨٤]؛ و«القول عندنا...»[٨٥]؛ و«هذا الذي قالوا عندنا كما قالوا...»[٨٦]؛ و «الذي قالوا في ذلك عندي كما قالوا...»[٨٧]؛ و«بالذي قلنا في ذلك قال أبو حنيفة وأصحابه...»[٨٨].

يضاف إلى تعابيره المأثورة والمتشابهة والمكررة بشكل أو بآخر استخدام تعبير ختامي مأثور مشهور عند طلابه هو قوله:

«قال أبو جعفر: والحق في ذلك عندي، وبالله التوفيق»[٨٩]؛ وقد تكرر خمس مرات تقريباً، وذلك لبيان وجهة نظره واجتهاده فيما يعرضه من مسائل فقهية هي موضع الخلاف. في الرأي.

والمأثور عند الناقلين عن إملائه أنه قد يختتم الموضوع بهذا التعبير التقليدي، فربما كان فيما نرجّحه من إضافة النساخ أو تعليق طلابه، وهو: «تم كتاب... والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على محمد وعلى آله الطيبين، وكتب محمد بن أحمد بن إبراهيم الإمام»، وقد يختلف بالزيادة أو النقص في التعبير: «تم كتاب الصرف والحمد لله على محمد وآله وسلم كثيراً»[٩٠]

مهما يكن من أمر هذا كله فإن الطبري تفرد بمنهج علمي سديد خاصّ به، وقد لاحظنا أنه قد طبقه في مؤلفاته سواء كان

Page 21

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

في التأريخ أو التفسير أم الفقه في كتب الاختلاف أو الائتلاف والإجماع عند العلماء جميعاً.

كما أنه وضع لنفسه أصول مذهب خاص به، اشار إليه المستشرق كرن في تقديمه لكتاب الاختلاف، ونعته بالمذهب الجريريّ، ولكنه لم يستمر طويلاً بعد موت الطبري.

قال ابن فرحون المالكي في الديباج المذهب: «وأما أصحاب الطبري وأبي ثور فلم يكثروا، ولا طالت مدتهم، وانقطع أتباع أبي ثور بعد ثلاثمائة، وأصحاب الطبري بعد أربعمائة»[٩١].

والمعروف أن الفرغاني كان من أهم رواة الطبري، وقد قال: «فلما اتسع علمه أداه اجتهاده وبحثه إلى ما اختاره في كل صنف من العلوم في كتبه، إذ كان لم يسعه فيما بينه وبين الله، عزّ وجلّ، إلا الدينونة بما أدّاه اجتهاده إليه فيما لم ينص عليه من يجب التسليم لأمره، فلم يأل نفسه والمسلمين نصحاً وبياناً فيما صنّفه»[٩٢].

والمعروف أن الطبري قد اظهر فقه الشافعي، وأفتى به في بغداد عشر سنين، وقد تجاوز ذلك فأفتى بما يمكن أن نعدّه تطوراً نحو إيجاد مذهب جريري خاص به.

وقد أشار الفرغاني إلى أن الطبري صنف كتابه الهام: «لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام»، وهو مذهبه الذي اختاره وجوّده واحتج له.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أن الطبري، كان ـ بالإجماع ـ عند أهل الطبقات إماماً مجتهداً مطلقاً، تفرد بتصانيف ذات أهمية كبرى في الفقه والتفسير والتاريخ، وأنه كما يقول القفطي[٩٣]: «واحد الدهر وفريد كل عصر».

المصادر والهوامش:

١ـ مصادر ترجمته وأخباره:
معجم الأدباء لياقوت ٤٠/١٨، و معجم البلدان ٥٧/١، ٥٨، و ١٣/٤ ـ ١٦، والنجوم الزاهرة لأبن تغري بردي ٢٠٥/٢، وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٥١/٢ ـ ٢٥٥، ووفيات الأعيان لأبن خلكان ٣٣٢/٣، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٢٠/٣ ـ ١٣٠، ومفتاح السعادة ٢٠٥/١ و ٢١٥، والبداية والنهاية لأبن كثير ١٤٥/١١، والكامل في التاريخ لأبن الأثير ١٣٤/٨ ـ ١٢٦، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٦٠/٢، وميزان الاعتدال للذهبي ٤٩٨/٣، ٤٩٩، ولسان الميزان لابن حجر ١٠٠/٥، وتاريخ بغداد ١٦٢/٢، والمحمدون ص٢٦٣، ومقدمة المرحوم محمد أبو الفضل ابراهيم لتاريخ الطبري٥/٨ ـ ٣٢، ومقدمة كرن لكتاب الطبري اختلاف الفقهاء ٣ ـ ٢٣، والأعلام للزركلي ٢٩٤/٦، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٦/٥.

٢ـ المحمدون ٢٦٣، وقد وضع مؤلفه القفطي كتاباً مستقلاً في حياته بعنوان «التحرير لأخبار ابن جرير»، وذكر «أنه كتاب فريد في نوعه».

٣ـ معجم الأدباء ٤١/١٨.

٤ـ المصدر السابق ٤٠/١٨.

٥ـ المصدر السابق ٤٠/١٨.

٦ـ طبقات الشافعية الكبرى ١٢٠/٣.

٧ـ المصدر السابق ١٢٠/١.

٨ ـ البداية والنهاية ١٤٦/١١، ١٤٧.

٩ـ المصدر السابق ١٤٦/١١.

١٠ـ المصدر السابق ١٤٧/١١.

١١ـ معجم الأدباء ٤٣/١٨ و ٨٣.

١٢ـ معجم البلدان ٥٧/١، ٥٨.

١٣ـ في اللسان عن ابن الأعرابي (مادة طبر) والمعنى قفز أو اختبأ، ومعنى (طبار) الداهية، و (الطبّار) ضرب من التين، وهو أكبر تين رآه الناس.

١٤ـ المصدر السابق ١٤ ـ ١٦.

١٥ـ معجم الأدباء ٨٠/١٨.

١٦ـ المصدر السابق ٨٨/١٨ و ٨٩.

١٧ـ ابن العماد: شذرات الذهب ٢٦٠/٢.

١٨ـ معجم الأدباء ٤١/١٨.

١٩ـ المقدمة لتاريخ الطبري ١٥/١ ـ ١٩.

٢٠ـ ذكر المرحوم أبو الفضل إبراهيم أن «حرقوص بن زهير السعدي كان صحابياً، ثم كان مع علي (رض) بصفّين، فصار خارجياً عليه وقتل، وربما كان في ذلك تفسير للكتاب». (المقدمة ١٨).

٢١ـ ذكر ياقوت أن الطبري ردّ فيه على داود بن علي الأصبهاني.

٢٢ـ أو شرح السنة.

٢٣ـ ألف ثلاثة كتب في الفضائل: فضائل علي بن أبي طالب و فضائل أبي بكر وعمر، ولم يتمه، وفضائل العباس، ولم يتمه.

٢٤ـ معجم الأدباء ٧٤/١٨.

٢٥ـ مقدمة اختلاف الفقهاء ١١.

٢٦ـ معجم الأدباء ٧٤/١٨.

٢٧ـ معجم الأدباء ٧٤/١٨.

٢٨ـ معجم الأدباء ٨٤/١٨، ٨٥.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

٢٩ـ سير أعلام النبلاء ٢٧٧/١٤.

٣٠ـ معجم الأدباء ٨٤/١٨، ٨٥.

٣١ـ البداية والنهاية ١٤٧/١١؛ ومقدمة اختلاف الفقهاء نقلاً عن تاريخ البرزالي، ص١٠.

٣٢ـ المصدر السابق.

٣٣ـ الفهرست لأبن النديم ٤٩١.

٣٤ـ المصدر السابق، ص ٤٩١. توجد نسخة خطية من هذا الكتاب في برلين رقم ٤١٥٥ كما ورد في تحقيق الفهرست.

٣٥ـمعجم الأدباء١٨/ ٧١، ٧٢.

٣٦ـ المصدر السابق ٧١/١٨، ٧٢.

٣٧ـ أبو علي، محمد بن عيسى (المتوفى سنة ٢٩٣هـ).

٣٨ـ معجم الأدباء ٥٧/١٨ ـ ٥٩.

٣٩ـ المصدر السابق ٦/١٨، ٦١.

٤٠ـ المصدر السابق ١٨/ ٥٩.

٤١ـ ميزان الاعتدال ٤٩٨/٣، ٤٩٩، ولسان الميزان ١٠٠/٥.

٤٢ـ المصدران السابقان.

٤٣ـ في الأصل (نبرأ) والصواب ما أثبت أي نسب.

٤٤ـ لسان الميزان ١٠٠/٥.

٤٥ـ المصدر السابق ١٠٠/٥.

٤٦ـ المصدرالسابق ١٠١/٥.

٤٧ـ الاسراء ٧٩/١٧.

٤٨ـ تفسير الطبري ٩٥/١٥.

٤٩ـ تفسير الطبري ٩٦/١٥.

٥٠ـ المصدر السابق ٩٦/١٥.

٥١ـ المصدر السابق ٩٦/١٥.

٥٢ـ المصدر السابق ٩٦/٦٥.

٥٣ـ المصدر السابق ٩٦/١٥.

٥٤ـ المصدر السابق ٩٦/١٥.

٥٥ـ المصدر السابق ٩٦/١٥.

٥٦ـ المصدر السابق ٩٦/١٥.

٥٧ـ المصدر السابق ٩٦/١٥.

٥٨ـ المصدر السابق ٩٧/١٥.

٥٩ـ المصدر السابق ٩٨/١٥.

٦٠ـ المصدر السابق ٩٨/١٥.

أفاض ابن جرير الطبري في روايات الكرسي التي وردت مرّة واحدة في سورة البقرة في آية الكرسي المعروفة بفضائلها. عن الحسن البصري أنه كان يقول: «الكرسيّ هو العرش، والعرش أكبر منه، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار. وعن أبي ذرّ أنه قال: «سمعت رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، يقول: (ما الكرسيّ في العرش إلاّ كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهراني فلاة من الأرض)...». وعن ابن عباس أنه قال «علمه». وقال آخرون: «الكرسي موضع القدمين» وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: «كرسيّه موضع قدميه، والعرش لايقدر قدره إلا الله، عزّ وجلّ». وقال السدي: «الكرسي تحت العرش».

ذكر الكرسي في القرآن مرة واحدة في سورة البقرة في آية الكرسي المعروفةذات الفضائل الكبرى كما ورد كرسي سليمان(ع)، وتكرر ذكر العرش الإلهي إحدى وعشرين مرة، ما عدا العرش البشري. فقد تكرر عرش ملكة سبأ بلقيس أربع مرات، وعرش النبي يوسف(ص) مرة واحدة، وهي بمعنى سرير الملك.

٦١ـ المصدر السابق ٩٨/١٥.

٦٢ـ المصدر السابق ٩٨/١٥.

٦٣ـ المصدر السابق ٩٩/١٥.

٦٤ـ المصدر السابق ٩٩/١٥، والبينونة عدم إحاطة بالعرش بالله.

٦٥ـ المصدر السابق ١٠٠/١٥.

٦٦ـ المصدر السابق ١٠٠/١٥.

٦٧ـ المصدر السابق ١٠٠/١٥.

٦٨ـ المصدر السابق ١٠٠/١٥.

٦٩ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، سورة الإسراء، ٣/ ٤٣٤، ٤٣٥.

٧٠ـ الميزان في تفسير القرآن ١٧٥/١٣.

٧١ـ المصدر السابق ١٧٦/١٣.

٧٢ـ معجم الأدباء ٥٧/١٨، ٥٩.

٧٣ـ شذرات الذهب ٢٦٠/٢.

روى الخطيب عن أبي حامد، الإسفرائيني أنه قال: «لو سافر رجل إلى الصين حتى ينظر في كتاب (تفسير ابن جرير الطبري) لم يكن ذلك كثيراً». البداية والنهاية ١٤٦/١١ وشذرات الذهب ٢٦٠/٢.

٧٤ـ المقدمة ٦ ذكر كرن ان المخطوطة منسوخة من نسخة المدينة المنورة.

٧٥ـ المصدر السابق ٦، ٧.

٧٦ـ المصدر السابق ٧.

٧٧ـ المصدر السابق ٤.

٧٨ـ إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار علوم الدين للامام الغزالي للزبيدي (طبعة مصر) ٣٠٦/٥ و (طبعة فاس) ٢٨٥/٦.

٧٨ـ المصدر السابق ١١١/١.

٧٩ـ المصدر السابق ١١١/١.

٨٠ـ المصدر السابق ١١٧/١.

٨١ـ المصدر السابق ١٢/١، ٢٧، و ٨٢/٢.

٨٢ـ المصدر السابق ١٨/١.

Page 21

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020

٨٣ـ المصدر السابق ١٨/١.
٨٤ـ المصدر السابق ٤٦/١، ٦٨، ١١٣، و ٨٥/٢.
٨٥ـ المصدر السابق ١١/٢.
٨٦ـ المصدر السابق ٦٣/١.
٨٧ـ المصدر السابق ٦٥/١.
٨٨ـ المصدر السابق ٤٩/١.
٨٩ـ المصدر السابق ٣/١، ١٣، ٥، ١٢، ١٩، ٢٩.
٩٠ـ المصدر السابق ٣٠/١، ٦٧، ١١٦.
٩١ـ مقدمة الاختلاف ١٥.
٩٢ـ المصدر السابق ١٥.
٩٣ـ المحمدون ٢٦٣.

فهرس المصادر والمراجع

اختلاف الفقهاء للطبري.
تحقيق المستشرق الدكتور فريديريك كرن، الطبعة الأولى، طبع مطبعتي الموسوعات والترقي بمصر/ ١٣٢٠هـ ـ ١٩٠٢م.

الأعلام لخيرالدين الزركلي.
الطبعة الثانية، بيروت ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

البداية والنهاية لابن كثير.
الطبعة الأولى، مكتبة المعارف في بيروت ١٩٦٦م.

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.
دار الكتاب العربي، بيروت.

تاريخ الطبري لابن جرير الطبري
الطبعة الثانية، تحقيق المرحوم محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي.
مطبعة الاستقامة في القاهرة.

تفسير الطبري لابن جرير الطبري.
المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ١٣٢٤هـ

سير أعلام النبلاء للذهبي.
مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي.
المكتبة التجارية للطباعة والنشر، بيروت.

طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي.
تحقيق محمود محمد الطفاحي وعبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البالي الحلبي ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م.

غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري.
تحقيق ج. برجستراسر، طبع مكتبة الخانجي بمصر ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م، الطبعة الأولى.

الغدير لعبدالحسين أحمد الأميني النجفيّ.
دار الكتاب العربي، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

الفهرست لابن النديم.
الطبعة الأولى، تحقيق الدكتور ناهد عباس عثمان، دار قطري بن الفجاءة ١٩٨٥.

الكامل في التاريخ لابن الأثير.
دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة.
الطبعة الثالثة، المكتبة الإسلامية بطهران ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.

لسان الميزان لابن حجر العسقلاني.
مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند، حيدر آباد الدكن ١٣٣١هـ

مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسيّ.
مطبعة العرفان، صيدا ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م.

المحمدون من الشعراء وأشعارهم.
تحقيق رياض عبدالحميد مراد، مطبعة الحجاز بدمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

مختصر تفسير ابن كثير لعماد الدين بن كثير.
اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، الطبعة الرابعة، بيروت، دار القرآن الكريم ١٤٠١هـ

معجم الأدباء لياقوت الحموي (إرشاد الأريب لمعرفة الأديب).
دار المأمون ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م.

معجم البلدان لياقوت الحموي.
دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.

معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة.
دمشق، مطبعة الترقي ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.
مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبري زادة.
حيدر آباد ١٣٥٦هـ
ميزان الاعتدال للذهبي
تحقيق علي محمد البجاوي، دار احياء الكتب العربية
١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م.
الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي.
الطبعة الثانية، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٣٩٢هـ ـ
١٩٧٢م.
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي.
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة
والنشر، القاهرة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.
الوافي بالوفيات للصفدي.
تحقيق ي. يدرينع، الطبعة الثانية، دار نشر فرانز
شتاينر بفرسبادن ١٩٧٤م.
وفيات الأعيان لابن خلكان.
تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة النهضة
المصرية ١٩٤٨م.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:32 IRDT on Monday August 31st 2020